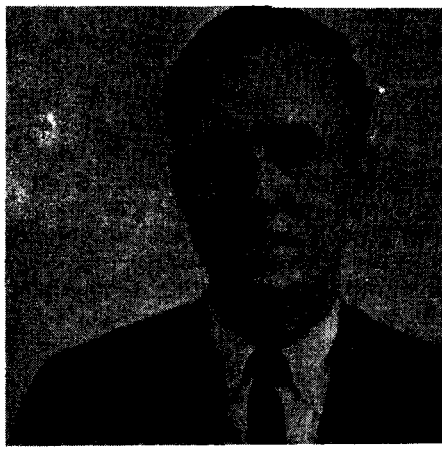

رالف ل . كيتشام

عمل رالف ل . كيتشام أستاذاً فى الدراسات الخاصة بالحياة الأمريكية ، والشئون العامة ، والعلوم السياسية فى جامعة سيراكيوز منذ عام ١٩٦٥ . حصل على درجة الدكتوراه فى العلوم الاجتماعية من سيراكيوز عام ١٩٥٦ . وكان قد تلقى دراسة صيفية فى جامعة أوكسفورد عام ١٩٥٠ . وفى الفترة ١٩٥٣ – ١٩٥٦ اشتغل محاضراً فى شئون المواطنة والقومية فى سيراكيوز . وفى الفترة ١٩٥٦ – ١٩٥٩ عمل الدكتور كيتشام باحثاً مشاركاً فى العلوم السياسية فى جامعة شيكاغو كما شارك فى إعداد وتحقيق «مذكرات بنجامين فرانكلين» .

وفى عام ١٩٦٥ اشتغل محاضراً فى الدراسات الخاصة بالحياة الأمريكية فى جامعة طوكيو .

وبنهاية عام ١٩٦٦ كان أستاذاً زائراً فى مدرسة خريجى شئون الباسيفيك فى جامعة ولاية نيويورك . فى ألبانى .

وفى عامى ١٩٦٧ – ١٩٦٨ كان أستاذاً زائراً فى جامعة تكساس بمدينة أوستن .

(٢) بنجامين فرانكلين : **سيرة ذاتية**

بقلم : رالف ل . كيتشام

ربما كان من الملامح الواضحة للسيرة الذاتية لبنجامين فرانكلين أنها عمل لم يتم ؛ لأنه لا يشتمل على آخر ثلاثين سنة من حياته ، وخاصة تلك السنوات التى قضاها فى إنجلترا وفرنسا وأمريكا حيث اكتسب شهرته كرجل دولة وديبلوماسى . لذلك لانجد فى السيرة ما يستحق الذكر عن الثورة الأمريكية سوى انعكاسات قليلة على علاقة المراحل المبكرة فى حياة فرانكلين بهذا الحدث القمة . لكن الحياة التى وصفتها السيرة ، وحتى تلك القطاعات التى كتب عنها فرانكلين فى عام ١٧٧١ وهو لا يزال من رعايا الملك جورج الثالث – هذه الحياة تعد موغلة فى الثورية إذا ما نظرنا إليها فى ضوء زمنها .

وليس من باب الصدمة أو الإهانة لفرانكلين أن نتهمه فى أية فترة من الفترات التى غطتها السيرة بأنه لم يكن سوى إنجليزى يدين بالولاء لوطنه على حين يعيش فى أمريكا الشمالية . كانت ذكريات صباه المبكر تدور حول الانتصارات المجيدة التى أحرزتها إنجلترا العريقة على لويس الرابع عشر ، وليست حول الإنجازات التى حققتها نيو إنجلاند (إنجلترا الجديدة) . كان يعتبر رحلاته إلى إنجلترا قبل عام ١٧٧٦ بمثابة العودة إلى الوطن ، مثله فى ذلك مثل معظم بل كل المستعمرين تقريباً فى تلك الفترة .

وعندما اشتغل ببيع الكتب فى فيلادلفيا كان فخوراً بإقبال الناس على شراء مؤلفات بوب

وأديسون وغيرهما من الكتاب الإنجليز الذين قوبلوا بإعجاب أشد من ذلك الذى قوبلوا به فى لندن نفسها كما كان يعتقد فرانكلين.فى عام ١٧٥١ كتب عن الإمبراطورية البريطانية ووصفها بأنها العائلة المتناغمة المتزايدة فى القوة والازدهار والحرية على كلا شاطئى الأطلنطى ، ولقد حزن عند هزيمة برادوك أمام حصن داكيزن ، وطار فخراً عند انتصار وولف فى كويبك بدرجة لا تقل عن وليم بت نفسه .

وفى أثناء ستينيات القرن الثامن عشر تعود فرانكلين أن يمدح الإمبراطورية البريطانية بأنها «أعظم كيان سياسى استطاعت الحكمة الإنسانية أن تقيمه» ، كما كتب يقول : إن فى إنجلترا «فى كل ضاحية تقريباً عقولاً أكثر حكمة وفضيلة وذكاء من مثيلاتها فى أمريكا وخاصة إذا ما قيست الضاحية بثلثمائة ميل من غاباتنا الواسعة .» لكن الثورة هى الولاء بعينه .

تلك كانت أولى الخطوات الواعية فى طريق الثورة الأمريكية ؛ خطوة سيطرت على فكر فرانكلين تدريجاً عندما بدأ فى اكتشاف الزيف والادعاء وضيق الأفق المسيطر على الإنجليز .

وأخيراً فى عام ١٧٧٥ أعلن من لندن أن «الفساد الفظيع المتفشى بين جميع أنماط الناس فى هذه الدولة العجوز المتعفنة» كان خطيراً لدرجة أنه لا يستطيع أن يتنبأ إلا بالمزيد من الضرر – لا النفع – من اتحاد أشد قوة» بين المستعمرات والبلد الأم . كان هذا هو التغير الذى جعل جون آدامز يعلن أن الثورة الأمريكية الفعلية – أى الثورة فى قلوب الناس وعقولهم – بدأت قبل عام ١٧٧٦ وقبل أن يتم تبادل الطلقة الأولى بين أصحاب المعاطف الحمر ودعاة الارتباط بأوربا .

ولعلنا نفتقد فى سيرة فرانكلين بالدرجة نفسها ما يزيد على مجرد لمحات عابرة من المرحلة الثانية للثورة الأمريكية ذات الأهداف الوطنية والتى بلغت قمتها فى إعلان الاستقلال ، والدستور الفيدرالى ، وفى الاقتراحات المتنافسة لكل من جيفرسون وهاملتون من أجل النمو القومى .

كان مشروع فرانكلين فى ألبانى عام ١٧٥٤ من أجل قيام اتحاد للمستعمرات يحكم نفسه حكماً ذاتيا إلى حد ما ، ومقاومته لامتيازات الحاكم المطلقة فى بنسلفانيا ، ومعارضته العنيدة فى لندن عام ١٧٥٧ لنظرية اللورد جرانفيل التى تنادى بأن «الملك هو مصدر التشريع للمستعمرات» ، كل هذا السرد فى سيرة فرانكلين يضع فى الظل الأهداف الثورية التى شغلت البلاد فى عام ١٧٧٦ وما بعده .

لكن فرانكلين فى سيرته بصفة عامة يعتنق المبادئ السياسية ، وأشكال الحكم ، حتى الأهداف الوطنية التى اعتادها لمدة طويلة كمواطن بريطانى .

ومثل معظم زملائه الثوار فإن فرانكلين ركز انتباهه الجاد فى إعادة صياغة الهدف القومى فى عام ١٧٧٥ فقط عندما عاد إلى وطنه (يقصد بالوطن هذه المرة أمريكا الشمالية) ، وتمثل هذا الهدف فى الاستقلال . وكان انشغاله بعمل دستور بنسلفانيا والدستور الفيدرالى ، ودفاعه عنهما – بمثابة إعلان للهدف تماماً كما كانت تصريحاته من فرنسا فيما يختص بالخطوط الرئيسية للسياسة الخارجية التى يجب على الأمة الجديدة أن تتبعها .

وأهمية هذه المرحلة كانت واضحة للمشارك والمشاهد بالدرجة نفسها منذ ذلك الحين وما بعده ؛ إذ إن هذه التصرفات الرسمية والبنّاءة بدت كما لوكانت مجسدة للثورة .

على أية حال كانت الحاجة إلى معنى جديد للكيان والشخصية القومية أقل وضوحاً ، بل على الأقل – أقل وعياً مما هو متوقع : ما الصفات الخاصة التى يمكن أن تميز مواطنى الولايات المتحدة ؟ ماذا ستكون عليه عادات أهلها واتجاهاتهم وخصائصهم ؟ ماذا سيمثلون فى هذا العالم ؟

تحت تأثير مونتيسكيو والأب دى بوا وغيرهما ركز القرن الثامن عشر تركيزاً كبيراً على تشكيل ملامح الشخصية القومية ، فعلى سبيل المثال كان يقال عن الإسبان إنهم يتميزون بالشجاعة والغموض والقسوة ، على حين يعرف الإنجليز بأنهم تجار عمليون وغير عاطفيين . أما الفرنسيون فقد اشتهروا بالرقة والفن والإباحية . كان المفروض فى كل أمة أن يكون لها دلالة خاصة ، وشخصية محددة من خلال تاريخها ، ومن الانطباع الذى يتركه على الزائرين مناخها وملامح أرضها .

ومعظم الأمم تملك ماضياً طويلاً غامضاً نبعت منه شخصيتها بمنتهى البساطة . أما الولايات المتحدة الجديدة من ناحية أخرى فتستطيع أن ترى أصولها بوضوح وبتحديد .

وبالإضافة إلى ذلك فإن معظم سكانها من البريطانيين مع أقليات ألمانية وهولندية وفرنسية وغيرها فى بعض الولايات . لكن هؤلاء الأوربيين الذين نقلت جذورهم إلى تربة مختلفة ، حتى فى الأيام الأولى للاستعمار – كانوا يبدون سلالة مختلفة من البشر دون إدراك واع لهذه الحقيقة الغريبة . كانت الأرض المفتوحة الواسعة ، ونوعية الهجرة عبر المحيط ، والدافع وراء مغادرة الوطن وغير ذلك – قد منحهم شخصية جديدة : فعندما حقق المستعمرون الأوائل

الاستقلال انضموا إلى الأوربيين فى تساؤلهم – لكن بإصرار وفذلكة متزايدة – مرددين سؤال كريفيكير الشهير : «من يكون إذن الأمريكى هذا الرجل الجديد ؟» .

إن سيرة فرانكلين قد أجابت عن هذا السؤال أفضل من أى عمل آخر وساعدت بهذا فى شرح مع التأكيد فى تحديد أكثر للعناصر الثورية فى الشخصية القومية .

كان آبل جيمس صديق فرانكلين – من أتباع مذهب الكويكر الدينى – قد وجد مسودة الجزء الأول من السيرة الذاتية بين أوراق فرانكلين ، وقد بعثرتها فرق الجنود البريطانيين فى أثناء الثورة . لقد قرأها بمتعة فائقة على حد قوله ، وحث فرانكلين على أن يتم عملاً « بهذا الجمال والمتعة والفائدة ، . . . عملاً يجمع بين الفائدة والتسلية ، ليس فقط للقلة بل للملايين . » .

وكان بنجامين فون – أحد الأصدقاء الإنجليز من الشبان – من الذين يعتقدون أن المخطوط كشف عن « الظروف الداخلية لأمريكا . . . سلوك وموقف أمة صاعدة ، » وبناء على ذلك يقدم صورة واضحة للأساليب الجديدة لهذا العالم الجديد . والناس على جانبى المحيط بحثوا عن معرفة نوعية الحياة هناك ، وعن الأشكال التى قد تتخذها فى الولايات المتحدة الجديدة .

ويبدو أن حياة فرانكلين فى بوسطن وفيلادلفيا حتى بلوغه الخمسين كانت بمثابة افتتاح لعصر جديد فى التاريخ الإنسانى بما تحمله من دلالات ملحوظة . لقد جسدت الخصائص التى شرحها فرانكلين بنفسه فى عام ١٧٨٢ وقال عنها . إنها مفيدة « لهؤلاء الذين قرروا الهجرة إلى أمريكا» .

وعندما نشرت السيرة الذاتية لفرانكلين أصبحت فى الحال نموذجاً وإلهاماً للشباب المتحمسين لتحقيق أسلوب جديد للحياة : يقول توماس ميلون المهاجر الآيرلندى ومؤسس إمبراطورية البنوك العظمى : إنه عندما قرأ السيرة فى عام ١٨٢٧ بينما كان يعمل فى زراعة فدادين أبيه القليلة فى غربى بنسلفانيا – صارت السيرة نقطة تحول فى حياته ؛ كما كتب فيما بعد .

أما بالنسبة لجاريد سباركس الذى تربى فى مزرعة كونيتكت فكانت السيرة « سبباً فى شحن طاقاته العقلية . . . وحفزته إلى اتخاذ قراراته . . . وعلمته أن الظروف ليس لها أى سلطان على العقل» ، وهى الآراء التى قادت سباركس إلى مستقبله ككاتب ورئيس لكلية هارفارد .

هناك أيضاً أحد رواد الطباعة من فلورنسا ، شرح كيف كان رجلاً ضائعاً فى سن الخامسة والثلاثين . قال : « لقد قرأت السيرة الذاتية لفرانكلين مرات ومرات إلى أن أصبحت عاشقاً

لأفكاره ومبادئه لدرجة أنها كانت بمثابة التجديد المعنوى لحياتى كلها . والآن وقد بلغت الحادية والخمسين فقد أصبحت من الصحة والبهجة والثراء بمكان »

وقد تمت ترجمة السيرة الذاتية لفرانكلين إلى عشرات اللغات . وأعيد طبعها مئات المرات أكثر من أية وثيقة أخرى استطاعت أن تلقى الأضواء وتقدم للآخرين الشخصية الجديدة التى باستطاعتها وحدها أن تبلور المعنى الكامل للثورة الأمريكية .

لعل الدلالة الثورية للسيرة تكمن فى طبيعتها وأسلوبها : كان شكل السيرة الذاتية شائعاً ومحبوباً فى القرن الثامن عشر ، لكن المضمون كان يدور أساساً حول المغامرات العسكرية ، ومؤامرات القصور ، والتطلعات الروحية . فطالما كتب أمراء البحر وجنرالات الملكة إليزابيث الذين اعتزلوا الجيش بعد انتصارهم على الإسبان – كتبوا عن الحملات التى لا تكل ، والخطط الاستراتيجية الشاملة ، والمعارك المجيدة . واستطاعت مذكرات أميركوند – القائد العظيم للويس الرابع عشر – أن تثير شغف الألوف فى أوربا وأمريكا .

كذلك كانت «القصص السرية» للأفعال والفضائح الخاصة التى دارت فى القصور الأوربية العظمى من القراءات التى يقبل عليها جمهور عريض من القراء ؛ كما استطاعت مذكرات الكاردينال دى ريتس التى تدور حول المؤامرات الماكيافيلية للحكومة الفرنسية بسبب قلة المؤيدين للويس الرابع عشر فى فترة من فترات حكمه ، والتى تدور أيضاً حول عصابة المتآمرين وراء انتخاب البابا – استطاعت هذه المذكرات أن تأسر لب جمهور عريض.. وأكثر إثارة من تلك كانت الحكايات الشخصية التى كانت تدور حول المآزق الحرجة التى تقع للنبلاء فى مخادع عشيقاتهم : كانت نيل جوين ومدام بومبادور حتى شخصية فانى هيل الخيالية من الأساطير إن لم تكن من أصنام تلك الأيام .

أما عن السير الذاتية التى اتخذت مضمونها من السياحة الروحية كما تجسدت فى رحلة الحاج كما نجد فى لويولا وجون بانيان وجورج فوكس الكويكرى – فكانت أكثر أصالة وجدية وإن لم تكن أقل فى الروعة . كانت التجارب الصوفية ومعجزات الخلاص قد ملأت القراء بالرعب والانبهار فى آن واحد .

من ناحية أخرى لم تستمد قصة فرانكلين مضمونها من المواقف البطولية بالمفهوم التقليدى ، فلم تهدر الدماء ، ولم تحك عن لقاءات الدهاليز ، ولم تحدد أى طريق غامض لبلوغ مرتبة القداسة . وبدلاً من أن يتكلم عن دنيا القصور الغريبة والنائية عن معظم الناس –

وصف فرانكلين حياة بدأت من مرتبة متواضعة يسهل التعرف عليها من الملايين وليس من المئات . .

وعلاوة على ذلك فإنه لم يرتفع فى مراتب الحياة بفضل قدرة غير بشرية ، أو علاقات غرامية ملتهبة ، أو حتى بفعل معجزات خارقة ، بل باستخدام قدراته الشخصية التى يملكها أى إنسان . إن سيرته الذاتية واضحة ومألوفة عن عمد : فالصورة السائدة ليست تلك التى تستمد ملامحها من الأحداث التى يعرفها الناس من الخارج اعتماداً على خيالهم ، بل هى عالم مألوف لهم بحيث يستطيعون التوحد معه بسهولة .

وبالإضافة إلى ذلك فإن اللغة المستخدمة تناسب الحياة التى وصفها ، لغة بسيطة ومباشرة ومرتبطة بالأرض والناس .

وعلى الرغم من أن قصة فرانكلين تتميز بالانبهار والجلال بطريقتها الخاصة – مثل أى سرد آخر يدور حول الكبرياء والقدرة الإنسانية – فإنها تلتقى هى والقارئ على أرضه ، وتقص عليه فى كل صفحة من صفحاتها أن ما فعله الكاتب يمكن أى إنسان آخر أن يقوم به من خلال اكتساب الصفات التى يحكى عنها . وإذا كانت الحياة فى العالم الجديد على هذا النمط فإن ثورة فى منتهى العمق والأصالة قد وقعت وطغت بطريقة ما على كل القصص الذى حُكيت من قبل عن حياة البلاط .

والنقاد الذين تناولوا سيرة فرانكلين الذاتية وحياته بالتعليق لم يكتبوا سوى الأفكار التقليدية الباهتة ، كما قال عنهم د . هـ . لورانس ، فلم يجدوا فيها سوى الاتجاهات الدنيوية والبورجوازية وغير الجمالية . بهذا المفهوم لم يدركوا أن فرانكلين كان يقصد عمداً إلى تأكيد هذه الصفات ، لكى يظهر للإنسان العادى أن بإمكانه أن يصل من خلال استغراقه فى عمله اليومى إلى الازدهار والكرامة .

لقد كان هدف السيرة الذاتية تعليم الخطوات العملية الأولى ، لكى توضح للإنسان العادى الإمكانات الضخمة التى تكمن داخله ، كما نجد فى وصف فرانكلين لتقاعده عن العمل فى الثانية والأربعين من عمره ، ثم تكريس حياته للعلم والأدب ، وخدمته الطويلة للجمهور . وعلى الرغم من أساليبه البدائية لتحقيق الفضيلة حتى افتراضاته الضحلة عن الطبيعة البشرية – فإن الصفة العامة التى تمثلت فى الحياة التى وصفها فى السيرة الذاتية لا تمت إلى الوضاعة أو التفاهة أو الإحساس الغليظ بصلة . لقد كانت بالنسبة لجماميع البشر طاقة زاخرة بالسمو والتحدى والأصالة ومن ثم كانت ثورية .

وعندما تقرأ الأجيال الشابة مذكرات فرانكلين فى سيرته الذاتية وتجدها ذات فاعلية وتأثير كما كانت من قبل فإنها توضح لها أيضاً عناصر الثقافة الغربية التى شكلت شخصيته . ومعناها الخاص فى العالم الجديد .

وعلى الرغم من رفض فرانكلين المبكر للمذهب التطهرى فى الدين ، فإن رواية بانيان « رحلة الحاج » مثلاً كانت بالنسبة له بلورة درامية للعادات والخصائص التى تجعل للحياة معنى وفائدة ويمكن أن تخدم الإنسان الجاد سواء فى سياحته الدنيوية أو الدينية :

على الإنسان أن يتجنب الغرور والكسل والضياع والجبن والرياء ، وأن يدرك قيمة الإقدام والأمانة والحكمة والإحسان ، لكن فرانكلين استخلص دروساً أكثر عن الشخصية الفاضلة من اطلاعه على «كتاب السير» لبلوتارك .

وبالإضافة إلى تبجيله للجدية الملازمة لشخص مثل ديموستينيس كان يضع الحصى فى فمه فى أثناء الكلام لكى يشفى من اللعثمة ، أو يصيح بأعلى صوته عند صعوده التل جرياً لكى يكسب صوته طبقات أعلى ، فإن بلوتارك مجد الرجال الذين يضعون أنفسهم فى خدمة الآخرين ، وليس فى خدمة ذواتهم فقط .

وكان بيركليز وبابليكولا وفابيوس ماكسيماس وشيشرون وغيرهم من المشرعين وبناة الأمم من القادة النموذجيين الذين يجب حذو حذوهم .

وعلى الرغم من امتداح الإسكندر الأكبر ويوليوس قيصر لقيادتهما الشجاعة والقوية فإنهما فى النهاية اتهما بالطغيان الذى أغرق العالم فى فيضان من الدماء . وكان تأثر فرانكلين بكل من بانيان وبلوتارك – على أساس أن يستخرج من تراثهما الأفكار ذات الدلالة الخاصة للأمة الجديدة التى ساعد فى يوم من الأيام فى إرساء دعائمها .

كانت هناك أعمال أخرى لكتّاب من أمثال دانيال ديفو وكوتن ماثر لها قيمة خاصة بالنسبة لوسائل التقدم الذاتى للمجتمع : فلقد عاش ديفو فى لندن وتشرب تماماً بالروح البورجوازية العاشقة للحياة فى أحسن صورها ، وانعكس هذا على ماكتبه ديفو من «مقالات عن المشروعات» لكى يقدم الأساليب العملية لحل المشكلات الاجتماعية : فقد رأى أن الجهد التعاونى والتنظيم البسيط يمكن أن ينقذا أرامل البحارة من الفاقة ، وأن يجعلا الطرق الإنجليزية أفضل طرق فى العالم ، وأن يخصصا الأموال التى تضيع هباء فى إنتاج الخمور فى مد مظلة التأمينات فوق الطاعنين فى السن .

وعلى مستويات عدة فإن ديفو كان يمثل الجانب الإنجليزى فى خلفية فرانكلين وفى مواهبه ونظرته إلى الحياة ؛ مما جعل إيمانه لا يتزعزع بأن المنطق والإدراك السليم يمكن أن يلبيا احتياجات المجتمع .

وكانت «مقالات لفعل الخير» التى كتبها كوتن ماثر تطبيقاً لأساليب ديفو فى تشجيع التكريس من أجل خدمة الله والناس فى الجماعات الصغيرة التى تقطن الحى نفسه .

وإذا تعاون الشباب فيما بينهم من أجل تلافى ثغرات الضعف والمشكلات التى تعتور حياتهم وتحمل المسئولية فى سبيل رفاهية مجتمعهم ، وتطبيق روح البر المسيحى – فإنهم يستطيعون بهذا أن يرفعوا مستوى حياتهم وأن يقوموا بتقدم اجتماعى ملحوظ .

وبحكم أن فرانكلين اطلع على فكر عصره العقلانى الجديد – فإن ذلك شجعه على استيعاب أبعاد العالم الذى عاش فيه : كانت فلسفة لوك التجريبية بإصرارها على أن الإنسان هو نتاج الانطباعات التى تصل إليه عن طريق الحواس ومن ثم فهو شخصية فريدة تتجاوب هى والعالم المحيط بها – هذه الفلسفة زادت من اهتمام فرانكلين بأثر البيئة: كانت عقيدة لوك التى ترى أنه يتحتم على التعليم أن يكون شخصيا وعملياً وواقعياً مع إصراره على أن الشخصية الفريدة للتجربة الروحية التى يمر بها كل إنسان على حدة تجعل من التسامح ليس مجرد حق بل ضرورة من أجل السلام الاجتماعى – كل هذا شكل القواعد الأساس التى نهضت عليها فلسفة فرانكلين الخاصة .

وعندما قرأ جريدة «الإسبكتاتور» التى وصفها فى السيرة الذاتية بأنها كانت ذات تأثير خاص عليه – ظهرت نظرته العالمية الشاملة على أوضح صورة :

كانت «الإسبكتاتور» تسعى إلى التخفيف من حدة التعصب التطهرى بكياسة الفكر الكلاسيكى ، وإلى التخلص من انحلال عصر العودة بإدخال جدية أخلاقية من نوع جديد ، ويبدو أن «الإسبكتاتور» بهذا أوضحت لفرانكلين أن فى استطاعته أن يستخلص من عالم آبائه ومن فلسفة لوك أفضل ما يناسبه فيما يتعلق بأسلوب الحياة الذى يناسب مزاجه وبالمعنى الواضح لها عندما رسَا مفلساً على رصيف ميناء ماركت ستريت فى فيلادلفيا . كانت التقاليد والفلسفة التى عرفت عن العالم القديم قد غربلت وامتزجت بعقلية فرانكلين الخلاقة ، كما تشكلت لتناسب الفرص المضطربة للعالم الجديد . كل هذا حقق توليفة ودلالة جديدتين . وإذا كانت السيرة تقلل من أهمية علاقة فرانكلين بالماضى – فإنها فى الوقت نفسه تبلور الدلالات

والمشروعات الثورية . وبلا وعى كامل فإن فرانكلين قد اكتسب شخصية خصبة بالمعنى لدرجة أنه عندما طعن فى السن احتاجت إلى سيرة كاملة على شكل رواية سواء فى الأسلوب أو المضمون .

عندما بدأ فرانكلين مستقبله العملى فى الاشتغال بالطباعة كانت الدروس التى استوعبها من ديفو وماثر مفيدة بصفة فورية . وعلاوة على ذلك فإن فيلادلفيا ، المدينة النامية التى لم يكن قد مضى على إنشائها خمسون عاماً بعد – كانت على أتم الاستعداد لكى يقودها وينظمها الشباب القادرون المتحمسون ، وكان «الجانتو» – نادى فرانكلين للتجار الشباب قد قام بالتطبيق الدقيق لما اقترحه ديفو وماثر . ولم يتوقف الأمر عند نجاح أعضائه فى تحسين مستواهم الاقتصادى بسرعة مدهشة ، بل أمدوا فيلادلفيا بسلسلة من المؤسسات المفيدة : من مكتبة لإعارة الكتب ، وشركة لإطفاء الحريق ، وجمعية للثقافة والتعليم ، وكلية ، وشركة للتأمين ، ومستشفى ، وجهاز كافٍ لأمن المدينة ! وإذا كانت النتائج المباشرة والملموسة فعالة فى ذاتها ، فإن دلالتها على المستوى الشخصى للأفراد كانت مباشرة وملموسة أكثر : فعندما امتزجت بيئة العالم الجديد بالخصائص العملية التى تجسدت فى فرانكلين – فإنها خلقت آفاقاً لم يكن لها مثيل من قبل . وكانت المشكلات الاجتماعية التى طالما بدت بلا حلول قد أمكن حلها فجأة من خلال أساليب ووسائل غاية فى البساطة : فلقد أصبحت الكتب فى متناول الألوف ، والرعاية الطبية متاحة للجميع ، والتعليم ضرورة لاحتياجات المجتمع . وانخفضت الخسائر الناتجة عن الحرائق ، والإرهاب فى الطرقات ، والموت بالطاعون انخفاضاً كبيراً بفضل التنظيم والمجهودات الإنسانية .

وبصرف النظر عن المسكنات الغيبية التى يصعب تتبع بداياتها وآثارها على انطلاقات الحياة الإنسانية التى تميزت بالقسوة والسطحية فى الماضى – فإن قصة فرانكلين لم تتفوق فقط على نظرة ديفو التى عبر عنها فى لندن ، بل برهنت على الكيفية التى يمكن أن تحولها إلى حقيقة . هذه القدرة على التحول أثبتت مرة أخرى أن الحياة فى العالم الجديد لها شخصية آسرة مميزة ، وذلك من خلال نموذج مادى ملموس من السهل تصديقه واستيعابه .

ومن الأساليب التى اتبعتها سيرة فرانكلين لكى تبلور إحساسها بالالتزام تجاه الإنسان العادى – أن كانت حركتها السلسة من العنصر الشخصى إلى الاجتماعى إلى السياسى : فبدلاً من أن تبدو القضايا الكبيرة التى تهم الرأى العام داخل مجال منفصل وبعيد لا يمكن معظم

المواطنين استيعابه – فإنها تبرز من خلال المهارات والاتجاهات التى علم فرانكلين كيفية تحقيقها للمواطنين العاديين .

وكانت القيمة التى أثرت فى فرانكلين فى شبابه قد أثبتت قيمتها العالية عندما بدأ صعوده فى سلم الحياة : فإن الأساليب التى تتميز بالتحكم فى النفس ، والأمانة ، والحيوية التى اكتسبها عن أبيه وعن المناهج التطهرية – كانت بالضبط الصفات التى يحتاج إليها رجل التجارة لكى ينجح . لقد أثبتت الأمثال القديمة والأفكار البسيطة – مثل التضحية من أجل الفضيلة – أنها نصائح عملية وذات معنى عميق للشباب الصاعدين . هذا الارتباط الواضح بالواقع كان بمثابة الرسالة الآسرة التى تضمنتها قصة حياة فرانكلين : فعندما تخطى فرانكلين شئونه الخاصة لكى يرى ما خلفها ، وعندما تدارس مشكلات المجتمع مع رجال من عقليته نفسها – فإنه يبدو من الواضح أن الفضائل التى اشتركوا فيها نفسها ومارسوها بالفعل – كانت تذكرة العلاج التى يحتاجون إليها تماماً . لم يكن هناك أدنى لمحة غامضة أو معجزة فيما يختص بمشروعات «الجانتو» . بل إن نغمة فرانكلين الدائمة كانت تؤكد مدى الوضوح والبساطة الذى تميزت به هذه المشروعات . نستدل على هذا – على سبيل المثال – بالجهود التعاونية المنظمة ذات المنافع الواضحة مثل الحفاظ على نظافة الشوارع ، وتوفير حراسة ليلية منتظمة وفعالة .

بالطبع فإن من أسباب سهولة هذا النجاح ما يرجع إلى الغياب النسبى للقوانين الحكومية العتيقة والمصالح الراسخة التى دائماً ما تعوق الابتكار . وهى قوانين ومصالح لم تقاس منها المدينة الجديدة . لم تكن هناك نقابات معوقة لرجال الإطفاء ولا أساتذة أكاديميون لمقاومة خطط فرانكلين من أجل إنشاء شركة لإطفاء الحريق أو إقامة كلية ؛ فقد استطاع أن ينجح فى عمله كرجل طباعة وأن يتوسع حتى فى عمله بطول ساحل الأطلنطى ؛ لأن حقوق الاحتكار وأساليب التأمين ضد الشيخوخة التى تمنع القادمين الجدد عن دخول المهنة – لم تكن قد ترسخت بعد بصفة عامة : ففى كل مكان توجه إليه فرانكلين وأصدقاؤه بنشاطهم الذى لا يعرف الراحة – وجدوا الفرصة متاحة بلا أية معارضة تذكر . ولعل مقارنته بديفو ذات دلالة . فإذا كانت روح الابتكار والإنتاج قد تجسدت فى ديفو بدرجة فرانكلين نفسها ، إذ إنه كان يمتلك الأصالة نفسها فى اقتراح المشروعات بل كان يمتلك مهارة أفضل فى مجال الكتابة – فإن لندن قد واجهته فى كل خطوة بنظم ومؤسسات لا تتجاوب . إن طبيعة العالم الجديد ذاتها

بخصائصها التى لم تتبلور أو تترسخ أو تسترعى الانتباه بعد – شجعت الأفكار على أن تتحول إلى حقائق .

كان تحول فرانكلين التدريجى والمبكر إلى السياسة امتداداً منطقياً لأنشطته الشخصية والاجتماعية . اشتغل بطباعة كل ما يتصل بشئون الولاية بصلة ؛ كما عمل فى إدارة المجلس الوطنى لبنسلفانيا من أجل أن يزدهر عمله الخاص . وكما وصف بالتفصيل فى السيرة الذاتية – فإنه قام بتنظيم الميليشيا فى مقاطعة الكويكر : لم يكن مقتنعاً بمبدأ الكفاح غير المسلح ، بل شعر بأن عبء الدفاع عن النفس له نفع واضح ؛ إذ آمن بأنه بقليل من سفك الدماء يمكن منع الفرنسيين والإسبان من تدمير فيلادلفيا بسفنهم الحربية .

بعد ذلك نجح بسهولة فى الحصول على مقعد فى المجلس الوطنى ؛ لكى يوسع خططه من أجل المستشفى والأكاديمية عن طريق جذب التبرعات والإعانات العامة . كان هدفه محدداً مستقيماً : أى استخدام حكومة الولاية نفسها – بصفتها أكبر المؤسسات فاعلية – فى تطوير المؤسسات من أجل المصلحة العامة . وهذا على أية حال الغرض الشرعى الوحيد من إنشاء الحكومة طبقاً لما تعلمه فرانكلين من لوك والآخرين .

أقام فرانكلين على هذا الأساس معارضته لامتيازات الملكية ، وبهذا وضع نفسه تماماً على طريق الثورة السياسية . وبدخول مجال السياسة لم يكن يخطر على بال فرانكلين بالطبع مقاومة البلد الأم ، لكن السيرة الذاتية تكشف عن أن العادات والقيم التى اكتسبها من الحياة فى العالم الجديد لم تكن لتناسب دائماً السلطات . لم يستطع حاكم بنسلفانيا أن يفهم : لماذا وقف فرانكلين فى صف «هؤلاء الكويكرز الملاعين» فى حين أنه كان على أتم استعداد لكى يمنحه منصباً مجزياً من الناحية المالية فى مقابل مساندته ؟ لكن فرانكلين لم يخطر له إطلاقاً أن يقف ضد الجماعة التى أوجدت فى بنسلفانيا حكومة «صالحة ومفيدة» .

وعندما وضع الملاك فى اعتبارهم الامتيازات التى كانت شائعة فى أوربا – فإنهم سعوا بلا أدنى خجل إلى التهرب من الضرائب على أراضيهم الواسعة فى بنسلفانيا اعتبر فرانكلين هذا السلوك بمثابة «حقارة غير معقولة» منهم ؛ لأنهم أرادوا وضع عبء الدفاع كله على صغار ملاك الأراضى . وقد أخبر فرانكلين حاكماً حاول رشوته بأنه سيقف بكل قواه وراء القوانين التى توضع من أجل مصلحة المواطنين بلا انتظار لأى ثواب . لذلك سيناهض كل الإغراءات والهدايا مهما كانت .

أدى هذا الاتجاه إلى سوء تفاهم مطبق بين فرانكلين وأحد القادة الإنجليز فى أمريكا الشمالية يدعى لاودون عندما أصر الأخير على أن فرانكلين كان من المستفيدين من الاتجار فى المؤن الحربية ، مثله فى ذلك مثل أى شخص آخر فى خدمة بلاط صاحب الجلالة . وبالنسبة لفرانكلين فإن المفاهيم والعادات البسيطة التى ارتبطت بالحياة فى أمريكا – بدأت تمارس تأثيرات مصيرية على طبيعة الإمبراطورية البريطانية ذاتها . لم تعد هناك نظرة ثاقبة إلى أصول الثورة الأمريكية أكثر من النظرة العابرة إلى المتناقضات التى تضمنتها سيرة فرانكلين الذاتية . فلقد وضعت فى الاعتبار الوسائل التى ارتفع بها إلى الشهرة والازدهار جنباً إلى جنب مع الوسائل التى ظن الحكام ذوو الملكيات الواسعة والقادة المبعوثون من قبل الملك – أنه من الممكن استخدامها فى إدارة شئون الدولة .

وعلى الرغم من أن فرانكلين قضى عشرين عاماً أو أكثر (إلى عام ١٧٧٦) حتى أدرك المغزى النهائى لهذه الطرق المسدودة التى دخل فيها مع المسئولين ذوى الملكيات والمبعوثين من الملك – فإنه فى الحقيقة كان يعيش حياة ثورية من لحظة ميلاده تقريباً . إن الأعمال القومية العظيمة التى قام بها فرانكلين فى أخريات حياته – والتى لم يصفها فى سيرته – تجسد الالتزام والعهد الذى قطعه على نفسه على مدى خمسين عاماً من مولده . كان غضبه من ترفع اللورد نورث وتركيز الأمور فى يده متوقعاً وخاصة إذا عرفنا أنه سبق له أن هجر بوسطن لكيلا يذعن لطغيان أخيه المؤسف . أما عن مهارته التكتيكية فى المفاوضات الدبلوماسية التى جرت فى باريس فإنها لم تدهش جيرانه فى فيلادلفيا الذين عرفوه من قبل وهو يقوم بتنفيذ الكثير من المشروعات المدنية . وكان من الطبيعى أن تصدر عنه المقالات الثاقبة والفعالة بطريقة مذهلة لكى يدافع عن الحقوق الأمريكية ، وخاصة أنه تعلم منذ الصبا كيف يستخدم الكلمات فى عرض الأفكار البسيطةالواضحة التى تدور حول العدالة والإدراك السليم .

إن الفهم الكامل لأسلوب حياة فرانكلين فى الخمسين سنة الأولى من عمره – وهى مضمون السيرة – تجعل أحداث الفترة (١٧٦٣ – ١٧٨٩) أقل فى الإثارة مما تبدو هى عليه . وعندما أصبحت الحياة التى عاشها فرانكلين فى بوسطن وفيلادلفيا حقيقة واقعة ليست بالنسبة له فقط ، بل بالنسبة للألوف غيره – وإن كانت بدرجة أقل – فإن الثورة ضد امتياز الميراث والرغبة العارمة فى إنشاء دولة جديدة لم تكن ممكنة فقط ، بل كانت حتمية إلى حد كبير .

إن الشخصية المميزة لسيرة فرانكلين الذاتية نفسها بكل ما تحمله من صدق تام ، وبساطة

متناهية فى السرد الدرامى – كل هذا يجسد مضمونها ويبلوره إلى أبعد من التقارير المجردة التى تنادى بالمبادئ الثورية .

لقد تربى فى أسرة لم تكن تتميز – على الأقل – من الأسر الأخرى سواء فى المركز الإجتماعى أو فى الكيان الاقتصادى . أما فى فيلادلفيا فكان مجرد هارب غير معروف الأصل ، لكنه وجد أن إمكاناته الذاتية فى المجتمع المفتوح بدرجة كافية مكنته من ممارسة وجوده وإثبات كيانه بأسلوب حاسم . وكانت الثقة التى اكتسبها من جراء هذه التجربة ، وأسلوب الحياة التى رسخت تقاليدها – من الدوافع الثورية الأولى الكامنة وراء الأحداث الدرامية التى وقعت عام ١٧٧٦ ، كما أنها كانت وراء الشخصية التى نمت ببطء للأمة الجديدة الناشئة .

وبما أن الكتّاب الأمريكيين كافحوا بوعى كامل لإيجاد أدب قومى ولكى يؤكدوا للعالم الإحساس بشخصيتهم القومية – فإن شعبية سيرة فرانكلين الذاتية قد أدت دوراً أساساً فى هذا المجال : فعند قراءتها يجد العالم والأمريكيون أنفسهم الإجابة عن سؤال كريفيكير «من الأمريكى ؟» ومن اللمحة الأولى يكتشفون بوضوح أن أساليب الحياة التى بدت خالدة وقاهرة للزمن قد عفا عليها الزمن .

وإذا أراد الإنسان أن يعرف الصورة التى كان عليها الأمريكيون ، وماذا كانت تطلعاتهم القومية – فما عليه سوى أن يقرأ سيرة فرانكلين الذاتية : فلقد جرفت فى طريقها كل المفاهيم الغامضة والمتوارثة للهدف القومى . كان هدف أمريكا هو إشعال جذوة الحياة مثلما فعل فرانكلين ، لذلك تجسدت شخصيتها فى قصة حياته . وكما رأينا فى الخمسة عشر عاماً الأخيرة من حياة فرانكلين فإن نظم الحكومة والسياسة الخارجية قد تشكلت لكى تخدم هذا الهدف وهذه الشخصية .

لقد كانت الخاصية التى تتميز بها الولايات المتحدة من بقية بلاد العالم الأخرى تكمن فى التضاد بين أسلوب الحياة الذى ارتضته لنفسها وذلك الذى عرفه العالم كله ! وكانت رسالة أمريكا أن تقدمها كنموذج للبشرية جمعاء . وعلى الرغم من النقاد – سواء فى داخل البلاد أو خارجها ، من مارك توين إلى د . هـ . لورانس – وقد ألقوا الأضواء القاسية على الحدود التى تقيد هذا الأسلوب من الحياة (أو على الأقل الحدود التى لم يستطيعوا تجاوزها فى سخريتهم منه) – فقد ظلت له قيمته وتأثيره على الملايين ؛ كما ظل المقياس الذى يمكن العودة إليه كلما جنح المجتمع الأمريكى إلى التحجر والركود والسوقية مما يذكره دائماً ما فقده أو حاد عنه .

وفى عالم زاخر بالأمم الجديدة فإن سيرة فرانكلين الذاتية لها من الدلالة ما يذكر بلده بأهدافها العادلة ، ليس هذا فحسب ، بل إنه يوحى بعناصر القومية اللازمة لأى بلد آخر .

وعلى الرغم من أن عالم فرانكلين قد اختفى على المستوى المادى ، وبالطبع فإنه لم يكن هناك أصلاً فى بقاع عدة من هذه الدنيا ، فإن المعنى الكامن وراء قصة حياته يمكن أن يستوعبه الجميع . إنه يذكرهم الصفات الشخصية وخصائص الشعب ، لذلك لابد أن يحدد الملامح التى هى أكثر إدراكاً ووعياً وتحديداً لبناء الأمة . إنه يقدم نموذجاً غير محدد نظرياً على الأقل بحدود قومية . وإذا كان أسلوب فرانكلين فى الحياة لم يستثن الاستفادة من الأساليب الإنجليزية أو اليابانية فإنه استوعب أيضاً تقاليد عدة ، ونفذ بنظره الثاقب إلى ثقافات أخرى شرقاً وغرباً .

وفى الحقيقة فإن الاستقبال الحار الذى لقيته السيرة الذاتية فى جميع أنحاء العالم لدليل على أن الأساليب الأخرى للحياة – مثل تلك التى تتضمنها مبادئ كونفوشيوس الأخلاقية – قد جسدت بعض القيم الشبيهة بتلك التى نادى بها فرانكلين . إن سيرته الذاتية تحث الشعوب – بما فيها شعب فرانكلين – لكى تدرك معنى وجودها من خلال الحياة اليومية لمواطنيها بحيث يتحتم عليهم أن يطرحوا جانباً كل الأفكار الغيبية والمغرورة والإمبريالية المؤثرة فى مصيرهم .